براءة سيبويه ممّا نسب إليه

Sibawayh was innocent of what was attributed to him

1 د. رشيد شهبة*

جامعة البليدة 2 لونيسي علي، الجزائر، rachid.chahba@gmail.com

تاريخ الارسال2024/02/08تاريخ القبول 2024/03/25 تاريخ النشر2024/03/31

ملخص:

يتناول هذا البحث المختصر قضية واحدة من قضايا أصول النحو، حاد فيها كثير من الدارسين عن دقة البحث العلمي، متأثرين ببعض ما قرره العلماء السابقون لهم، وهذه القضية هي: مسألة احتجاج سيبويه بشعر بشار بن برد خوفا من هجائه وذمه له، هل هي حقيقة أو افتراء عليه؟ حيث ذكرها السيوطي في كتابه الاقتراح، وتلقفها بعض الدارسين بعده، بالتسليم، والتأييد، يقول السيوطي: " أول الشعراء المحدثين بشار بن برد وقد احتج سيبويه في كتابه ببعض شعره تقربا إليه لأنه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره ذكره المرزباني وغيره".

ولقد قررها السيوطي في كتابه الاقتراح، وتلقفها عنه كثير من الدارسين بعده، حتى صارت مسلمة في الدراسات اللغوية، وقد بينت فيها وجه الصواب، ورددت فيها الخطأ بحسن الجواب، والله أسأل التوفيق للسداد.

الكلمات المتاحية: سيبويه؛ مسألة الاحتجاج؛ السيوطي؛ بشار بن برد.

Abstract:

This briefresearchaddresses one of the Assets of grammar issues, many researchers have move daway from the accuracy of scientific Research, influenced by some of their previous scientist'sdecisions, and this issue is: Question of Sibaouih'sprotestagainst Bashar Ben Bord's poetry for fear of satire and defamation, is it real or standerous؟where Assouiouti mentioned it in his book el Iquetirah, and some researchers took it after recognition and endorsement, Assouiouti said": the first modern poets Bashar Ben Bord protested in his book about some of his poetry to him because it was a trend to leave him to protest his Marzabani poetry and other."

And Essouiouti's decided in his book el Iquetirah, many researchers took it after him, until it became axioms in linguistic studies, in which I showed the face of correctness and echoed the mistake with good answer and, I ask God the success.

Keywords: Sibaouih ; The issue of protest ; ;Bashar Ben Bord ; Assouiouti

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

سيبويه، أبو بشر، ذلك الرجل الشاب العالم، الذي ذاع صيته في مشارق الأرض ومغاربها، أثنى عليه المتقدمون والمتأخرون، وصار قدوة للطالبين، في دقة التأليف، وجودة الترتيب، وقوة الملاحظة، وجمع كتابا توالت عليه الدراسات منذ حينه ولم تنقض بعد، عالم حمل علم شيوخه لا سيما الخليل منهم ونقله إلينا بصدق وأمانة، فكان له دور كبير في حفظ العربية، وضبط قواعدها.

لقد تنوعت الدراسات اللغوية بعده وازدهرت، وكان له الأثر الكبير في ذلك، ومع تنوعها واختلافها لقي فكر سيبويهبعض المغالطات، والتي صارت مسلكا للطعنفيه، وسبيلا للتنقيص من علمه وقدره هو شيوخه.

من ذلك ما اشتهر، وانتشر، وصار كالمسلّمة في علم العربية، لا سيما وقد تقرر في كتب علماء كبار اشتهروا بالتأليف والتصنيف، ولكن قل عندهم التحقيق والتدقيق، ومن أشهر هذه المغالطات والملفقة بطعونات، بقصد أو بغير قصد: أن سيبويه وشيوخه اقتصروا على ست قبائل فقط في تقعيد القواعد، وأن سيبويه احتج بشعر بشار وهو ممّن لا يحتج بشعره خوفا من هجائه، وأنه هو وشيوخه فرطوا في الاحتجاج بالحديث النبوي فلم يحتجوا به، ...

وقد تناولت في هذا البحث المختصر قضية واحدة بينت فيها وجه الصواب، ورددت فيها الخطأ بحسن الجواب، والله أسأل التوفيق للسداد، وهي مسألة احتجاج سيبويه بشعر بشار، حيث ذكرها السيوطي في كتابه الاقتراح، وتلقفها بعض الدارسين بعده، بالتسليم، والتأييد، يقول السيوطي: " أول الشعراء المحدثين بشار بن برد وقد احتج سيبويه في كتابه ببعض شعره تقربا إليه لأنه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره ذكره المرزباني وغيره"[1].

وهذا القول منه غير دقيق، بل ليس صحيحا، والدليل على ذلك ما يلي:

01- اختلف الرواة في نسبة هذه القصة أهي لسيبويه، أم للأخفش، فقد نسبها المرزباني (384هـ) إلى الأخفش، ونسبها الأصفهاني (356 هـ) إلى سيبويه، يقول المرزباني: "كانَ الأخفش يطعنُ على بشّار في قوله:

والآن أقصرُ عن سميّةَ باطلِي ... وأشارَ بالوجْلَى عَلَيّ مُشيرُ

وفي قوله:

عَلَى الغَزْلَى مِنّى السَّلامُ فرُبما ... لهوْتُ بهَا في ظلِّ مخضرّةٍ زهر

وقال[2]: لم يسمع من الوجَلِ والغَزَل« فعْلَى »، وإنما قَاسَهُمَا بشّار، وليس هذا مما يقاس، إنما يعمل فيه بالسَّماع، وطَعن عليهِ في قولِه:

تُلاعِبُ نينَان البُحُورِ وَرُبَّمَا ... رَأَيتُ نُفوس القومِ مِنْ جَرْيِهَا تجرى

وقال: لم يسمع بنون ونينان فبلغ ذلك بشارا فقال: ويلي على القصّار بن القصّارين، متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصّارين؟ دعوني وإياه. فبلغ ذلك الأخفش فبكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: وقعت في لسان الأعمى[3]! فذهب أصحابه إلى بشّار، فكذّبوا عنه، وسألوه ألّا يهجوَه؛ فقال: وهبته لِلُؤْمِ عرضه. قال: فكان الأخفش بعد ذلك يحتجّ في كتبه بشعره ليبلغه ذلك، فيكفّ عنه"[4].

ثم ذكر المرزباني بعد ذلك ما بين سيبويه وبشار من خلاف، ولكنه لم ينسب إليه ما نسبه إلى الأخفش من الاحتجاج بشعره تزلفا إليه وخوفا من هجائه؛ حيث يقول: "وقد كان بلغ بشَّارًا عن سيبويه أيضا شيءٌ من ذلك، فهجاه بقصيدة يقول فيها:

أسبويه يا ابن الفارسيّة ما الذي ... تحدَّثتَ من شيمتي وما كنت تنبِذُ

أظلْتَ تغنِّي سادرا بمساءتي ... وأمّك بالمِصْرَيْن تُعطِي وتأخُذُ

فقيل لبشار: تنسبه إلى الفارسية؟ قال: نسبته إلى أن أعرف أبويه. قيل: فلم جعلتها فارسية؟ قال: إنّ بفارس الشريف والوضيع. قال ابن مهدى: وحدثني أبو هفّان، قال: حدثني أبو محلّم، قال: كان بالبصرة امرأة زانية يقال لها الفارسية مشهورة بالزنا؛ فكان أهل البصرة إذا أرادوا أن يزنّوا إنسانا قالوا له: «يا بن الفارسية»، فإلى هذا ذهب بشار؛ وكان أشدّ عصبية للفرس من أن يقول هذا"[5].

وهذا يدل على أن السيوطي خلط بين الأخفش وسيبويه، في الاحتجاج بشعر بشار خوفا من هجائه، لأنه أخذ عن المرزباني، فتأمل.

فإن قال قائل لقد نُقل كذلك عن غير المرزباني، فالجواب أنه قدم المرزباني على غيره، ولعله يقصد الأصفهاني، فهو الذي نسب إلى سيبويه الاحتجاج بشعر بشار اتقاء لشره، حيث يقول: "وقال غير أبي حاتم: إنما بلغه أن سيبويه عاب هذه الأحرفَ عليه لا الأخفش، فقال يهجوه[6]:أسبويهيابن الفارسيّة...قال: فتوقّاه سيبويه بعد ذلك، وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهدا من شعر بشار احتج به استكفافا لشره"[7].

وهذا الاختلاف في النسبة إلى سيبويه أو الأخفش هو مما يضعف ثبوتها، ويزيدها ضعفا أنّ:

02- مَنْ ذكرها، وهم الأصفهاني والمرزباني، ممن لا يعول عليهما في النقل، وذلك لما يلي:

* قدح العلماء في نقل الأصفهاني مِن حيث كثرةُ تأليفه مقارنة مع زمن تحصيله وكتابة علمه؛ أي: ما يقرب من خمسين سنة للطلب والتأليف، وقد بدأ الطلب في حدود الثلاثمئة (300 هـ) وكان قد مات سنة 356 هـ، قال الذهبي: "وكان طلبه في حدود الثلاثمائة، فكتب ما لا يوصف كثرة حتى لقد اتهم"[8].

وقال أبو محمد الحسن بن الحسين: "كان أبو الفرج الأصبهاني أكذبَ الناس، كان يشترى شيئا كثيرا من الصحف، ثم تكون رواياته كلها منه"[9].

** قدح العلماء في نقل المرزُباني أبو عبيد الله من جهة دينه، ومن جهة روايته، أما من جهة دينه فقد كان يشرب النبيذ ويكتب أثناء شربه، يقول الأَزْهَرِيُّ: كَانَ المَرْزُبَانِيُّ يَضعُ المحبرَةَ وَقنِّينَةَ النَّبِيذِ، يكتُبُ وَيشربُ، وَكَانَ مُعتزليّاً، صَنَّفَ كِتَاباً فِي أَخبارِ المعتزلةِ"[10]، وأما من جهة روايته، فقد قال عنه الأزهري كذلك: "وَمَا كَانَ ثِقَةً"[11]، وقال عنه الذهبي: " وَكَانَ رَاوِيَةً جَمَّاعَةً مُكْثِراً، صَنَّفَ (أَخبارَ الشُّعَرَاءِ) ، لَكِنْ غَالِبُ رِوَايَاتِهِ إِجَازَةٌ، فَيُطلِقُ فِي ذَلِكَ: أَخْبَرَنَا، كَالمتَأَخِّرِينَ مِنَ المغَارِبَةِ"[12].

ولا يخفى على أنّ إطلاق أخبرنا وحدثنا على الإجازة في الرواية أنه تدليس عند المحَدِّثِينَ، وهو ممنوع عندهم في نقل الأخبار؛ "قَالَ ابْنُ الذَّهَبِيِّ: "وَلِمُتَأَخِّرِي المغَارِبَةِ مَذْهَبٌ فِي إِطلَاقِ: حَدَّثَنَا عَلَى الإِجَازَةِ، وَهَذَا تَدْلِيْسٌ"[13]، وهو الذي عليه جمهور علماء الحديث من أهل التحرّي والورع[14].

وقال عبد الرحمن حاج صالح عن كل من الكتابين: الأغاني، والموشح: ينبغي ألا يوثق بهما[15].

03- ومما يقوي اختلاق هذه القصة على سيبويه ما في القصة نفسها من كذب على سيبويه، فقد ذكر المرزباني أن سيبويه عاب على بشار جمع نون على نينان، فهجاه بشار بأبيات، وهذا الادعاء باطل من أساسه، حيث إن سيبويه في كتابه يصحح جمع نون على نينان فكيف ينكرها على بشار؛ يقول سيبويه: "ونينان جماعة النون"[16] ولكن من عرف بعدم الثقة والتحري في الأخبار كالمرزباني والأصفهاني لا يبعد عنهما مثل هذا.

04- ذكر هذه القضية أبو العلاء المعري (449 هـ) في رسالة الغفران، لكنه لم يجزم بصحتها، بل في كتابه ما يدل على عدم ثبوتها، حيث ذكر قبل سرده لها قصصا أخرى عن بشار وسيبويه، وقال: "وهذه أخبار لا تثبت"[17]، بل واعتذر له، وما اعتذاره إلا بيانا أن سيبويه فوق ذلك الادّعاء المنسوب، حيث قال: "وذَكَرَ مَنْ نَقَلَ أخبارَ بشّار أنه توعد

سيبويه بالهجاء، وأنه تلافاه واستشهد بشعره، ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون في المجالس ومجامع القوم"[18].

05- كل من ذكر هذه القصة، سواء المرزُباني، أم الأصفهاني، لم يحدد الأبيات التي احتجّ بها سيبويه من شعر بشار بن برد، وقد سردنا ما في كتبهم بالتفصيل عن هذه القضية، وأول من حدد ذلك هو أبو العلاء المعري في كتابه رسالة الغفران، حيث يقول: "وأصحاب بشارٍ يروون له هذا البيت:

وفي كتاب سيبويه نصف هذا البيت الآخر، وهو في باب الإدغام لم يسم قائله. وزعم غيره أنه لأبي الأسود الدؤلي"[19].

06- لا يثبت عن بشار بن برد هذا البيت الذي ذُكر عند المعري، والثابت أنه لأبي الأسود الدؤلي[20]، وقد نُسب إليه في الكثير من المصادر من بينها:

وما كل ذي لبٍ بمؤيتك نصحه، ... وما كل مؤتٍ نصحه بلبيب

وفي كتاب سيبويه نصف هذا البيت الآخر، وهو في باب الإدغام لم يسم قائله. وزعم غيره أنه لأبي الأسود الدؤلي"[21].

الجدول رقم 1:

المؤلف	الكتاب	الجزء/الصفحة
ابن أبي الدنيا	الصمت وآداب اللسان	311
	الإشراف في منازل الأشراف	233
أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (296هـ)	من اسمه عمرو من الشعراء	16
أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (310هـ)	جامع البيان عن تأويل آي القرآن	568/8
أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (370هـ)	المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم	195
محمد بن العباس الخوارزمي	الأمثال المولدة	392

		568
محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، أبو علي (ت 388هـ)	حلية المحاضرة	33
أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (450هـ)	أدب الدنيا والدين	301
الجاحظ (ت 255هـ)	الحيوان	318/5
أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري (ت 442هـ)	تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم	172
إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري (ت 453هـ)	جمع الجواهر في الملح والنوادر	77
أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت 463هـ)	العمدة في محاسن الشعر وآدابه	4/2
أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي	إيضاح شواهد الإيضاح	902/2 904/2
محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (ت 562هـ)	التذكرة الحمدونية	301/3
محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي (بعد 702هـ)	التذكرة السعدية	32
محمد بن أيدمر المستعصمي (710هـ)	الدر الفريد وبيت القصيد	405/10
محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور	مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر	230/11

الأنصاري الرويفعي الإفريقي (711هـ)		
أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)	الإصابة في تمييز الصحابة	456/3
شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت 852هـ)	المستطرف في كل فن مستظرف	85
أبو عبد الله الحسين بن علي بن طلحة الرجراجيالشوشاوي (ت 899 هـ)	رفع النقاب عن تنقيح الشهاب	562/2
عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)	شرح شواهد المغني	542/2
عبد القادر بن عمر البغدادي (ت 1093هـ)	خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب	281/1
		283/1
	شرح أبيات مغني اللبيب	228/4
الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (ت 1102هـ)	زهر الأكم في الأمثال والحكم	303/1

07- من المعلوم أن سيبويه لم ينسب البيت لبشار، فلو كان فعلا دافعُ سيبويه للاحتجاج بهذا البيت هو الخوفَ من هجاء بشار، لكان نسبه إليه في كتابه، وإلا فبشار لن يرضى بغير ذلك.

خاتمة:

الهوامش:

1: السيوطي، الاقتراح، ص 59.
2: يقصِد الأخفش.
3: يقصد بشارا.
4: المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص313/ 314.
5:المرزباني، الموشح، ص314.
6: يقصد بشارا.
7: الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط1، 1929م، ج03، ص214.
8: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، ط 1، 1963م، ج3، ص123.
9: المرجع نفسه، ص 124.
10: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، ص448.
11: المرجع نفسه، ج16، ص448.
12: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، ص448.
13: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص393.
14: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الصنعاني توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، تح: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط 1، ج2، ص206.
15: الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص16.
16: سيبويه، الكتاب، ج3، ص593.
17: المعري، رسالة الغفران، ص 140.
18: المرجع نفسه، ص 140.
19: المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، رسالة الغفران، تصحيح: إبراهيم اليازجي، مطبعة أمين هندية – مصر، ط1، 1907 م، ص 140.
20: أبو سعيد الحسن السكّري، ديوان أبي الأسود الدؤلي، تح: محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت–لبنان–، ط02، 1418هـ/1998م، ص45.
21: المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، رسالة الغفران، تصحيح: إبراهيم اليازجي، مطبعة أمين هندية – مصر، ط1، 1907 م، ص 140.

قائمة المراجع:

1–أبو سعيد الحسن السكّري، ديوان أبي الأسود الدؤلي، تح: محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت–لبنان–، ط02، 1418هـ/1998م.
2–الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة.
3–الذهبي، سير أعلام النبلاء.
4–سيبويه، الكتاب.
5–السيوطي، الاقتراح.

6-محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الصنعاني توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، تح: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1.

7-المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء.

8-المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، رسالة الغفران، تصحيح: إبراهيم اليازجي، مطبعة أمين هندية – مصر، ط1، 1907 م.